

## الباب الثامن

وفيه أربعة عشر موضوعا

- ( ١ ) الوحدة في الأمم ترجع الى قوتي العلم والعمل
- ( ٢ ) كيف تصير الأمة كلها جسما واحدا وكيف تقارن بجسم الانسان
- ( ٣ ) تأثير الاعتقاد في الأمم
- ( ٤ ) ما به نظام الدنيا والدين
- ( ٥ ) ما آل أهل المدينة الفاضلة بعد الموت
- ( ٦ ) الأمة تضارع العالم كله في نظامه
- ( ٧ ) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا
- ( ٨ ) الترقى سنة العالم شرحها القرآن قبل داروين باثني عشر قرنا زيادة شرح وايضاح
- ( ٩ ) أقسام أهل المدينة الجاهلة وأعمالهم
- ( ١٠ ) آراء أهل المدن الجاهلة
- ( ١١ ) في انماء الثروة
- ( ١٢ ) في الخشوع
- ( ١٣ ) اعتقادهم في العدل
- ( ١٤ ) المدن ذات الروح أو الجسد والروح ثم الضالة والفاسقة

## (١) الوحدة في الأمم ترجع الى قوتى العلم والعمل

لا يشك من طالع أساليب حكم الخليفة وما أوتيت من لدن المبدع الحكيم ان كل قوة منحها فانما ترجع الى قوتى العلم والعمل وهاتان القوتان كأنهما سلسلتان متناسبتان ملتصقتان سائرتان على نسق واحد أو عرفان يمتصان الغذاء لنبات واحد وعلى حسب قوتها وضعفها يكون ولنبدأ بقوة العلم وسنة رسول الله عزوجل في ترتيبها في مراتبها ثم نلحقها بقوة العمل وندعها يتلاقيان في طرفهما عند تبيجتهما وهي الحياة ونطبقهما على أمة الاسلام وكما ان كل نتيجة لها مقدمتان فهكذا الحياة نتيجة الوجود ولها مقدمتان العلم والقدرة

وان أردت البيان فهناك نواميس الوجود ترى ان أصغر الديدان أعطى قوة الحس لا غير فيمتص مما حوله ولم يعط غيرها ووهب من الحركة الضعيفة على مقدار تلك الحاسة الحفيرة فيسعى بالانقباض والانبساط كتلك الديدان المولدة في بطون الحيوانات الكبيرة والخل والابن والطين ونحو ذلك ثم يترقى عن ذلك ديدان الزرع فقد أعطى مع الحس الذوق ليفرق بين ما يناسب وما لا يناسب فيأخذ ويذر ثم ما هو أرقى من ذلك وهي حيوانات الظلمة في قاع البحار أعطيت مع اللمس والذوق حاسة الشم لمناسبة ذلك لمراعيتها التي تترقى فيها ويترقى عن ذلك حيوان أعطى قوة السمع مما يترقى في الظلمات لما ابتلى به من حيوانات تؤذيه وفوق الجميع ما أعطى قوة البصر فاستكمل الحواس الخمس ثم ترقى الحيوان في البر والبحر في أنواع الذكاء وإبداء الغريب الى أن يربى أولاده كالحوانات التي تبيض وفوقها التي تلد وأعلى منها ما تفهم عن الانسان بالتعليم وأرقى منها ما تقلده والإنسان أرقى من ذلك كله فيأخذ في العلوم والتجارب ، ويصل بعضه بموهبة من مدير الكون الى درجة النبوة بلا كسب من عنده ولا تجربة فهذه مراتب العلم من أدنى حيوان الى أشرف انسان ومع كل مرتبة من مراتب للعلم ما يوازيها من العمل أو الاستعداد المناسب فترى كل حيوان له قدرة ما على السعى

اما الى هرب واما الى طلب على مقتضى ما يأمر به العلم اذ المعلوم اما مهروب عنه أو مرغوب فيه فلهذا كانت تلك الأعضاء والقوى سالحة للطلب تارة والهرب أخرى مختلفة باختلاف الحاجة وعلى حسب العلم المودع فيها فمنها ما ينتبض وينبسط ومنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجليه ومنهم من يمشى على أربع ومنهم من يمشى على أكثر من ذلك الى عشرة وعشرين وهكذا ومنها ما يعلو عن ذلك فيطير في الجو بجناح يختلف مقداره باختلاف الطائر وقوته وخلقه ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ) وقد اجتمع في الانسان قوتا العلم والعمل وكل منهما يقوى الآخر فهما في الدول أمامنا اتخذت العلم رائداً للقوة معيماً لها والعمل كذلك قوة للعلم معينا له فهما قوتان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر وتقيجتهما الحياة وعلى حسبها تكون الدولة فهما في قوة العلم أصبحت تدل على المكتشفات والمخترعات وتعرف مواقع الدول ونظامها وصنائعها وأحوالها فتأخذ قوة العمل في اعداد ما يلزم للمصارعة تارة والمقارعة والمصارعة أخرى واعساد لوازم الحياة للحالة الحاضرة فهما تنوعت قوى الحيوان من الرجل والجناح والسعي على البطن فانها ترجع الى القدرة لا غير ومهما اختلفت أنواع الحسن من لس وذوق وشم وسمع وبصر وادراكات وغرائز ورحمة على الولد وامثال أمر وميل للتقليد وارتقاء في العقليات فانه يرجع الى العلم

ولعمرك ما موقع الأمم المنحطة من الأمم الراقية إلا كواقع تلك الديدان في أجواف الحيوانات الكبيرة من تلك الحيوانات تسمى وتصبح ولا حراك لها إلا الاقباض والانبساط ولقد ضرب الله مثلا للانسان بهذه الحيوانات وسلسلتها في الترقى علماً وقوة وكأنه يقول أنا رقيت هذه الحيوانات في قوتها فما لهذه الأمم أصبحت منشقة العصا ولو أنهم سمعوا وأبصروا لوقفوا على أحوال الأمم الراقية التي ابتلعهم في بطونها فهم يقولون في الحياة قبل المات لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير وكل صنف أعلى مما تحته ولقد كرمتك أنت فأعطيتك عقلاً يمكنك أن تصل الى ذروة المجد بل تطير في عالم المدينة طيراناً أكثر من الباشق في جو السماء . فهذه

الحيوانات لم تعط قوة الترقى وأنت أعطيت تلك القوة فمالك تقلد الديدان وتبقى في حضيض الجهل والهوان فسحقا لأصحاب السعير وما الآخرة الا ثمرة من ثمرات الدنيا وقال تعالى ( وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهِيَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ) والأعمى في الدنيا من لا يرى رشده وأى رشد بعد معرفة حياة الأمة بين الأمم والأمن على الأرواح والأنفس والترقى على حسب سنن الكون فقد علمت من هذا ان كل الصنائع الداعية لقوة الدفاع والمهجوم بجميع آلاتها الحديثه وهكذا كل ما به التجارة والزراعة والصناعة هي قوة العمل وما به إحياء العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الأولى هي ما به قوة العلم وبينهما تلازم كتلازم الطعام والشراب والسمع والبصر والعقل

## (٢) كيف تصير الأمة كلها جسماً واحداً

وكيف تقارن بجسم الإنسان

ظهر لك من نواميس الكون انه كجسم واحد وهكذا كل نبات وحيوان وانسان وكل جماعة منها له وحدة مخصوصة كالأجناس العليا والسفلى والوسطى وهكذا الأنواع ولم تقتصر الوحدة على سريانها في المحسوسات بل سرت في المعقولات فما من علم الا وله وحدة تجمع مسائله كالحمد والموضوع فيقال علم الحساب موضوعه الأعداد من حيث الجمع والتفريق وهكذا بل كل طائفة من العلوم لها جامعة من وجه فأغلب العلوم الطبيعية يطلبها الطب والعلوم الرياضية يطلبها الفلك إذ لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والخبر وهكذا علم العمران يحتاج للجميع والفلسفة تبحث عن مبادئ جميع العلوم فتتنبه العقول الى مدبر الكون فالزمت الأمم القدماء والمحدثين بالنظر في جميع العلوم إذ هو فوق النظر في هذه الأجسام واذا كانت الوحدة سنة الكون فلنتخذ جسم الانسان ناموساً نقيس عليه وحدة الأمة فنقول قدمنا في فن التشريح ان جسم الانسان درجات بعضها فوق بعض من أدنى لأعلى لكل من الأعضاء مرتبة لا يتعداها ولا ريب عند الحكماء ان الأمة كجسم الانسان أو العالم كله فكما ان نظام الكون كله مرتب مراتب درجات بعضها فوق بعض وجسم الانسان كذلك ولكل حكمة في الجسم

والكون فكذلك الأمة لكل فرد من أفرادها درجة في بناء هيكلها قال تعالى ( ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفسٍ واحدة ) ولنبين معنى هذه الآية فنقول أنها تشمل على معنيين أحدهما ان خلقنا كنفس واحدة والثانية ان بعثنا كذلك .

أما الأولى فاعلم اننا لا نفهمها إلا اذا تأملنا تشريح الجسم فيما ذكرنا وبنينا عليه نظام الأمة فكما ان أعضاء البدن يخدم بعضها بعضاً فكذلك أفراد الأمة يعين بعضهم بعضاً ( وتعاونوا على البرِّ والتقوى ) وكما ان الأعضاء لكل منها وظيفة لا يتعداها ولا يصلح إلا لها فكذلك أفراد الأمة لكل واحد منهم استعداد لا يصلح لأعلى ولا أدنى منه إلا بقدره وعلم جديدين فالدماع مسكن الإدراك والفكر والعقل والقوى النفسية والحواس ولا يصلح لما هو دون ذلك من تحريك الدم في العروق وجريانه وطبخ الطعام كالمعدة وغير ذلك والقالب لا يليق ان يكون بدل الامعاء ولا يستعد ان يقوم مقام الملك وهو الدماغ ثم الكبد وهو خادم القلب وكذا الرئة لا يتومان مقام القلب فيما اختص به ولا يترلان عن طبخ الدم وادخال الهواء الى أقل من ذلك من مضغ الطعام وهضمه وهكذا خدام الكبد من الأوردة والأمعاء والمعدة والحلقوم والأسنان والصفراء والكليتين والطحال كل هذه لا تصلح للقيام لطبخ الدم بدل الكبد ولا يمكنها النزول الى درجة الأيدي والأنتيين وآلة التناسل فتعمل عملها وهكذا اليدين والرجلان وآلة التناسل هي أسفل أعضاء الجسم منزلة وأدناها عملاً فهي خادمة لا مخدومة وبالجملة فهذه الأعضاء ثلاثة أقسام منها رئيس ليس غير وهي الرأس ومنها مرئوس ليس له راسة وهو الاطراف من اليدين والرجلين ومنها ما هو رئيس ومرئوس باعتبارين وهو ما يلي ذلك كالقلب والكبد والكلىة والمثانة فكل واحدة رئيسة لما بعدها مرؤوسة لما قبلها

فكذا يكون افراد الأمة فالحاكم الأكبر منها بمنزلة الرأس من بقية البدن ولا يصلح إلا للأمر العامة ولا يتنزل للجزيئات كالدماع

والقلب بمنزلة الوزير يجب أن يكون في العلوم والمعارف والاستعداد والجاه أقل من الملك وأكثر ممن هو تحته فان كان أعلى مما هو فيه أو أدنى فهناك الطامة والفساد ثم من تحت الوزارة من نظار المصالح يكونون بمنزلة الكبد والرئة والأوردة والشرايين التي تعطى الدم وتأخذه

فلا يجوز أن يكونوا كالوزراء استعداداً ولا مثل الذين هم أسفل منهم طبعاً مثل حكام المقاطعات وهكذا حكام المقاطعات هم بمنزل الكليتين والطحال والمرارة والعروق والحجاب الحاجز والصدر والحلقوم فهؤلاء لا يليق أن يكونوا كنظار المصالح استعداداً ولا كمن هم تحته من أمراء الجهات إدراكاً وفكراً وجاهاً وهكذا حكام الجهات الصغرى ومشايع البلدان الكبيرة والصغيرة فهم كالعدة والأعضاء والقواطع والأسنان درجات بعضها فوق بعض لا يجوز أن يكون أحدهم مساوياً لمن فوقه استعداداً ولا نازلاً لدرجة من تحته فكراً وإدراكاً ويسرى ذلك من الحاكم إلى الكاتب إلى الخادم والصانع والفلاح وهم الذين يخدمون ولا يخدمون في مقابلة الرئيس الأكبر للأمة وهو الذي يخدم ولا يخدم ومتى كانت الأمم على هذا النظام أصبحت تضارع النظام العام في السموات والأرض وفي جسم الانسان الذي خلق في أحسن تقويم وإذن تكون الأمة كلها مطابقة لخلق نفس واحدة وتقوم على أحسن منوال وهذه هي المدينة الفاضلة

### (٣) تأثير الاعتقاد في الأمم

من تأمل في الأمم وجدها تشترك في أمور تعميها ولولاها ماتعاملوا ولا تجاوروا وأهمها الأحساس بان لهم قوة يخضعون لها مهيمنة عليهم وما في قلوبهم من رحمة على ابناء جنسهم والعقل الفردي المنبث في جميعهم وإن تنوعت البيانات وتباينت العقول واختلفت القوى ولكن الأحساس والفكر الشامل الفردي ليس يخلو منه قط الانسان وعليه تبادلوا المنافع والتجارات والصناعات والعلوم وكل يميل إلى صناعة أو حرفة أو بلد أو أمة أو دين فاختلقت الفطرية ولأجلها تنوعت الصناعات والأعمال

واحتاج كل فريق للآخر (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك)

وكما اشتركت الأمم في الاحساس الفكري والصورة الجسمية والحاجة العامة يجب أن تشترك كل أمة في أمور تخصها لا يشاركها فيها غيرها حتى تتم وحدتها وأرفع أمة هي التي يسرى في جميع أفرادها اعتقاد بصانع الكون وصفاته وأنه متدس واحد لا شريك له ليس له أول ولا آخر قديم باق ليس كمثل شيء تنزهت ذاته عن الأجسام والتجزئة والتقسيم شملت قدرته جميع الممكنات وعم علمه وكلامه الواجبات والجائزات والمستحيلات لا يصدر شيء إلا عن إرادته يعلم ما فوق السموات وما في طبائها وما في الجو والثرى وما تحته . وبالجملة إن كالاته لانهاية لها وهو منزه عن جميع النقائص وأن له ملائكة عظاماً وأنبياء ورسلا قد اتبعوهم ودانوا إلى آخرهم الذي أرسل إليهم كمن اتبعوا إبراهيم وموسى قبل المسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام وأن يكون فيهم علماء وحكماء خلفوا هؤلاء الأنبياء يقومون بالارشاد والاستنباط فيهم وإلا هلكوا وضلوا وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيهم استعداد تام للدين والدنيا وسياسة الدارين فيقودون الخلق لمعاشهم ومعادهم ودنياهم وآخرتهم ونحو أجسادهم وقوة أرواحهم فانهم يتلقون الوحي عن مبدع الكون لما أفاض عليهم من الاستعداد وقد قويت فيهم القوة الخيالية والعاقلة وهم أذكى وأعفأ شجعان ذاكرون لما علموه نهاء أمناء فطناء رحماء بالخلق قويا البنية ليس في أجسامهم ما ينفر طبعاً صادقون يبلغون ما أمروا به للخلق قائمون بسياستهم في الدين والدنيا

### ( ٤ ) ما به نظام الدنيا والدين

اعلم ان الدنيا والدين لا يصلحان الا بوجود أربعة أشياء الزراعة والتجارة والصناعة والسياسة والأخيرة مما قبلها بمنزلة الرأس من الجسد وكما لا يصلح الجسد الا بالرأس فهكذا لا تنفع صنائع الأمة وزراعاتها وتجاراتها إلا إذا قامت سياستها على الوجه الأتم

بل السياسة في الأمة كالروح في الجسم فكما تكون الأمة جسداً واحداً له أعضاء متعاونة فهكذا يجب أن يكون لهم روح مدبرة سارية فيهم وهي القوة السياسية وهي إيمان تخص بواطن العامة والقائمون بها هم الوعاظ أو الخاصة فقط وهم الحكماء والعارفون وأما أن تحكم على ظواهر الاجسام لا غير وهي سياسة الملوك والحكام وأما أن تم الجميع ظاهراً وباطناً خاصة وعامة وهي سياسة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فاذا نقلوا إلى جوار ربهم جعل الله تلك السياسات موزعة في طوائف من أممهم إذا أراد بقاءها فاذا ضعفوا عن حمل تلك الامانة ولم يقوموا مقام نبيهم باعتبار مجموعهم دل ذلك على اضمحلال تلك الأمة الضاللة وأخذها في الدمار والشقاء أما القائمة مقام نبيها فتختص كل طائفة من عقلائها وعلمائها بعمل فهوؤلاء للوعظ وهوؤلاء للحكم بالعدل وهوؤلاء للتبصر في العلوم ويتقاسم العامة أعمال الصناعات والزراعات ويتتبع مجتهدوها ومستنبطوها آراء نبيهم مع ملاحظة ما هم عليه والوسط الذي هم فيه إذ علوم الانبياء تأتي للناس عامة لاسيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام ويمكن انزالها على كل وقت وبالجملة فكل أمة تحتاج إلى نبي تتبعه وحكماء يستنبطون فان الله عز وجل خلق العقل وأنزل الديانات وكما أن لكل نفس قوى مختلفة والعقل رئيس عليها كما نشاهد من نفوسنا فهكذا لكل أمة عقلاء ولها نبي يجمع آراءهم

واعلم أن الناس مدينون بالطبع وذلك ان كل فرد لا يمكنه أن يقوم بجميع لوازمه فلا بد اذن من توزيع الاعمال عليهم بحسب الطبع والقطرة فيحتاج كل للآخر ولا بد بعد ذلك من التبادل فيأخذ النجار ما عند الخباز والخباز ما عند النجار فيتبادلان ثم لا بد من قسطاس يحكم بينهما بالعدل فوجب أن يكون بعض المعادن قاصياً حكماً كما على القيم لاحظ لأحد المتتابعين فيه يكون معياراً للتبادل ودليلاً على النقص والزيادة وقد اصطلمحت أغلب الأمم على الذهب والفضة ثم لا بد مع ذلك من طمع أحد المتبادلين في الآخر فلا بد اذن من حاكم ناطق إذا عجز الحكم الصامت من النقدين ثم بعد ذلك لا بد له من ناموس يحكم به وإلا لأصبحت آراؤه وأوهامه وأغراضه لها

انسلطان على الأمة وذلك القانون يقوم به العقلاء، ولكن هؤلاء، مختلفون بل الانسان الواحد يناقض نفسه في وقتين مختلفين وإذن لا بد من شرع آتى به النبي ليقرم لعقول الأمة مقام عقل الشخص لقوى نفسه وما العقول إلا كالغذاء وما الشرائع إلا كالدواء فأى أمة اتبعت عقولها وتركّت أنبياءها مرضت مدينتها وان غلظت وعظمت كما ترى من قوم يكثرون من الاغذية ولا يتعاطون الأدوية فأولئك تعافز أجسامهم ويدب فيهم الداء وتكون أمراضهم دفعية فتأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون وهذا حال أم أوروبا قد ترقوا في كثير من شؤونهم العمومية ونبذوا الديانات فلم يراعوها إلا بين الأفراد بعضهم مع بعض فأصبحت معاملات الأفراد يغلب عليها الصدق والأمانة أما معاملات الأمم فاتها تابعة للحضوظ ثم انهم أباحوا للأحاد بأشياء لم يراعوا فيها نص الشرائع السماوية كالربا والخمر فترى مدينتهم زاهية زاهرة كالجسم العظيم السمين ولكن فيها أقوام كثيرون يمشون في الأرض فساداً ويريدون أن يقوضوها على عروشها جزاء بما كسبت من ترك الدواء واستعماله كالأشتراكين والنهبست وهناك كثير من الأقوام أصبحوا في أشد الفقر المدقع وعظيم الحاجة لسبب عدم التوازن بين الأفراد إذ العقل الانساني لا يمكنه الإحاطة بجميع المصلح والمضار أما الناموس الالهي فينهى عن الربا مثلاً لعله أنه يجعل الناس في الأمة قسمين عبيداً وسادة لا غير وهذا هو الخلل العظيم وها هو حاصل في أوروبا الآن و ترى ان الشرقيين على عكس أولئك تماماً فتركوا استعمال العقل في شؤونهم العمومية . وقلدوا في أمورهم الخصوصية وزاعوا بعض الدين فانسحوا من المدنية وأنحطت قواهم إذ لم يراعوا موهبتى الله المفاضتين عليهم ومهما قوة العقل والدين ومهما في شؤونهم إلا كمثل من استعمال الدواء وترك الغذاء فتراه يشرب صباح مساء الأدوية ويترك الأغذية وهذا بلا ريب أخط من الأول مدنية وأقل منه شرفاً فلا دنيا ولا دين على انه لا يتحقق دين بلا دنيا فتأخذ ان أهل المدنية الفاضلة هم المتبعون لنبي المستنبطون المؤمنون بالله وبشريعته بعقولهم وان اختلفوا فيما بينهم في الفروع كما تختلف أعضاء الجسد في اشكالها من طول

وعرض وتدوير وصلابة ولين وعروق ولحم وأنهم ان وقفوا على العقل وحده ضلوا أو الدين وتركوا العقل بالكليّة خسروا الدين والدنيا جميعاً ويكون اتباعهم للدين بمجرد الاسم إذ لا دين إلا مع تعقله ومتى عقل الدين كان أدل على حفظ نظام الدنيا والآخرة معا وقد علمت حال أمم الشرق والغرب هذا حال الأمم في هذه الحياة الدنيا

### (٥) ما لاهل المدينة الفاضلة بعد الموت

إعلم أن هذه الدنيا عنوان الآخرة ولا يجوز أن يعبر إلى الآخرة إلا على قنطرة الدنيا وأية أمة ظنت أن الآخرة تأتي بلا دنيا فهي جاهلة لم تدرك شيئاً . ألم تركب فرضت فرائض الموارث وأحكمت شرائط البيع والشراء والهبة والقرض وحرم الربا والزنا والسرقه ودونت أحكام النفقة والمهر والدخول والطلاق والعقوبات من القطع والقتل والقصاص والجلد والرجم والتغريب والتعازير مما يجتهد فيه القضاة ، أليس ذلك كله لحفظ نظام الدنيا . ولعمري إذا لم يكن عند الناس مال فأين المعاملات والبيع والشراء وأين الموارث والحقوق وأين تفرض النفقات ومن أين تكون السرقه والربا فهذه كلها جعلت قيوداً وشرائط لتحفظ بها هذه الحياة الدنيا ويمر عليها بالمعقول والأفكار إلى الآخرة بالأعمال الصالحة ومن ظن غير ذلك لم يفقه في الدين شيئاً ولم يعرف لم خلق ثم إن أهل الكمال من الأمم كلها تراهم يميلون إلى فكر واحد ووجهة واحدة وهو الصراط المستقيم فيتعاونون على البر والتقوى عاملين بقوله تعالى ( ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويتهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ) ، ( وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون )

وقد استنتج العلماء رحمهم الله كالشافعي في الرسالة وأصحاب الأصول عامة ان الصناعات واجبة وجوباً كفاثياً ونحن نقول لما كان كل فرد له استعداد لعمل خاص . فليكن يجب عليه أن يقوم بذلك العمل مع من له استعداد فيه كالموسم الكونه

ان لكل شيء من الموجودات منفعة ليست في غيره وهذا هو الذي ادين الله به مهما اختلف الفقهاء فيجب على المستعد لعمل ما أن يقوم به حتى يبرع فيه ويحب على غيره من الأمة أن يشجعه عليه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسنعتقد لهذا بابا خاصاً عند التكلم على مدينة الاسلام ونذكر انه يجب على ملوك الاسلام وأمرائه تنشيط كل مستعد لعمل ما الى عمله لتقوم المدينة بالقسط في هذه الدنيا ويأخذ الناس بعضهم بيد بعض للدار الآخرة

وما الآخرة إلا ثمرة من ثمرات الدنيا ونتيجة من نتائجها ( ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقينا عذاب النار ) ولا يكون ذلك إلا بأن يكسب كل امرئ اعتقاده الصحيح الذي ذكرناه آتفا بالله وملائكته وكتبه ورسله ونبيه الخاص ونظام أمته ثم يكسب أخلاقا حسنة ويلتذ بها في حياته الدنيا . وكلما طال أمدته في الدنيا حسنت في عينه صناعة من علم وعمل وإرشاد وعدل بين الناس فيقوى علمه وعمله وكل من أفراد الأمة يفرح بنظيره من سابقه ومعاصريه فتري العالم يفرح بمن على شاكلته من أي بلد كانوا وعلى أي مذهب من مذاهب الفروع كانوا مع توجيه النفوس الى مبدع الكون في أوقات معينة والمحافظة على الاجتماعات في الصلوات والجمع والأعياد والحج ومواساة الفقراء بالأموال وهكذا مما أوصت عليه الشرائع وهذا حقيقة لانتم الدنيا إلا به فاذا ذهب الناس الى ربهم كانوا فرحين بنفوسهم ونفوس أشكالهم في جنة عدن فوق فرحهم في الدنيا بمراتب وإلى ذلك تشير شريعتنا المطهرة ولذلك ترى المصلي يقرأ الفاتحة ويذكر الله بالرحمة العامة في خلقه لعموم الناس ويحمده على تربية جميع العالمين تربية مصحوبة بالرحمة تارة والشدة التابعة للملك تارة أخرى ثم يقول ها نحن أولاء جميعاً نستعين بك إذ الأمة عبارة عن أشخاص كلهم كفرد واحد وكل فرد فيها كعضو من الأعضاء فنحن نعبدك جميعاً اذ لا يقوم الواحد منا بالعبادة وحده لكثرة لوازم الوصول اليك والفرد الواحد لا يقوم بها كلها كما أن العضو الواحد من الجسد لا يعيش وحده ونحن مع هذه الكثرة البالغة لا يمكننا أيضاً ( ويوم حنين إذ أعجبكم كثير تكم

فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ( وَاِنَّمَا الَّذِي يَعْينُنَا عَلَى ذَلِكَ أَنْتَ وَحَدِّكَ فَايَاكَ نَسْتَعِينُ فَاهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

هذا ملخص سورة الفاتحة من حيث المعنى اجمالاً فهي ترجع الى اجتماع القوم المؤمنين في زمن واحد ثم اذا نظرنا للتشهد وجدنا أنه يزيد على ذلك فيحيي الله تعالى ويثني عليه كالنصف الأول من الفاتحة فيقول التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله وهذا نظير أول الفاتحة الى الرحمن الرحيم ثم يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فبعد أن يذكر الله تعالى يشرع في ذكر نبيه ثم نفسه وجميع عباد الله الصالحين ممن مضى ومن هم في زمانه ويأتي بعده في أعلى السموات أو أسفل الأرضين ليربط قلبه بجميع المصلحين في الأرض ويتذكرهم فيقتدى بأعمالهم فالقصد من العبادات هذا التذكر والتفكير والرابطة بالجميع من كافة الطبقات ولهذا رمز الحكماء في كتاب كليله ودمنة بالحمام الذي تعاهد على التخلص من الشبكة التي وقعت فيها ثم بعد ذلك يوحد الله بالشهادتين ويصلي على النبي وإبراهيم وآله لأنه هو الذي جاء بالتوحيد بعد دروسه فنظر في ملكوت السموات والأرض وكشف له عن جميع ذلك ونزه الآله وملخص هذا ان الصلاة جعلت تذكرة لسيتين ذكر الله تعالى واستحضاره ثم ذكر من أصلح في الأرض من الأنبياء ومن على شاكلتهم للاقتداء بهم ومن ظن انها مجرد عبارات تقال أو أن القرآن مجرد التعبد فأولئك قوم ليس لهم حظ من الدين والشريعة والعقل . ورد في رسالة الامام الشافعي رضي الله عنه ما معناه ان سائلاً قال لم اخترت في التشهد التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين الى آخره

فقال رحمه الله هذه رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال السائل أين أنت من رواية عمر وهو يخطب على المنبر يقول قولوا التحيات لله الزاكيات الخ فقال رضي الله تعالى عنه ان قول عمر صار اجماعاً إذ لم ينكر عليه أحد فاقرارهم عليه

بعد اجماعا ولكنى فضلت رواية ابن عباس لاستنادها للنبي مباشرة فجعلتها أولى وإن كنت اعتمد رواية عمر فقال له السائل إن هناك روايات أخرى في التشهد غير ما روى عن ابن عباس وعن عمر فماذا ترى فقال له رضى الله عنه متى صححت الرواية فاعمل بها لا فرق بين رواية ورواية ولا حديث وحديث مهما تعددت الطرق وتباينت الروايات فقال له السائل كيف يجوز ذلك ودين الله واحد وكيف تعدد الروايات ويصلي الناس بصلوات مختلفة أليس ما نزل الله على النبي شيئا واحدا فقال الشافعي رضى الله عنه اعلم ان القصد في التشهد إنما هو ثناء وهو يؤدي بأي صيغة وليس القصد التعبد بتلاوته فلا غرو اذا أدى بأي صيغة أو كيفية واذا كان القرآن نزل على سبعة أحرف وأريد منه معناه فما بالك بثناء يراد منه التعبد وهل تذكر ما روي ان هشام بن حكيم قرأ سورة الفرقان فسمعه عمر فأخذ بتلايبه وأحضره عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انه قرأ القرآن بغير ما أنزل فأمره النبي بإطلاقه وقال اقرأ فقرأت أنا وهشام فقال صلى الله عليه وسلم بهذا وبهذا أنزلت نزل القرآن على سبعة أحرف فقرأوا ما تيسر

فتأمل كيف كان علماءنا رضى الله عنهم لا يراعون الا المعاني فهذه الصلاة لم يقصد منها الا نزوع القلوب للخالق والاتحاد مع الخلق في مصالح الدنيا ونظام الدين بتهديب الأخلاق والأعمال الصالحة وكال النفوس الانسانية والعقول البشرية وأى أمة لم تفقه من الصلاة الا أفاظها ومن العبادات الاقشورها فقد ضلت ضلالا بعيدا عن المدينة اذ تبقى معرفتها برهبها نباتا ضئيلا لم يسق واثنتاسها باخوانها ومساعدتها بقدر الضرورة وفيما عدا ذلك يكتر تحاسدهم وتضارهم وتعديهم واختلافهم فتتمزق دولهم كل ممزق ويضمحلون كما اضمحل الأولون .

## (٦) الأُمّة تضارع العالم كله في نظامه

ولما كانت الأُمّة تضارع العالم كله في نظامه نرى المصلى يقف تارة على استقامة وأخرى يركع كما هي خلقة نوع الحيوان ثم يسجد كالنبات وهذا مقتضى القسمة العقلية اعتدال وتنكيس وتوسط وهكذا الست الجهات فان المصلين حول الكعبة وفي أطراف المعمورة يصلون إليها فيستقبلون الجهات الأربع ويرفعون رؤوسهم الى السماء ويسجدون واضعين رؤوسهم الى الأرض فكأنهم في صلاتهم يشيرون الى نظام العالم كله وأن الأُمّة الواحدة يجب أن تكون كهذا النظام كله الذي هو كنفس واحدة فالأُمّة كالجسم الواحد وكالعالم كله من حيث النظام ووضع كل شيء في رتبته ولم يكتب في الإشارة بالاتحاد بتلك الأقوال والأفعال الاشارية بل جعلت الصلاة جماعة اشارة الى وجوب تضام القلوب في المدينة وذلك خمس مرات في اليوم والليلة لأهل المحلة الواحدة ثم في خطبة يوم الجمعة لأهل البلدة

وتأمل كيف لاحظ الشافعي رضي الله عنه ألا تعدد الجمعة في المصر الواحد لأنها في الحقيقة سرها الاجتماع وقيام رئيس المدينة خطيباً يذكّرهم بأحوالهم ونظامهم في دنياهم وآخرتهم بمقتضى الأحوال الحاضرة لا مجرد أحوال محفوظة من الدواوين ثم اجتماع المصر ومن حوله في العيدين والاستسقاء والخسوف والكسوف ثم اجتماع أهل الاسلام قاطبة في مكة المكرمة من استطاع منهم سبيلاً مرة في العمر لتبادل الأمور العامة (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم) فجعل الله الكعبة محلاً يقوم به الناس ويتذاكرون دينهم وسياساتهم العامة وأعمال ملوكهم هذا هو من أجل مقصود الشرع السماوي الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام

فاذا تم ذلك لهم دخلوا بعد الموت في الدرجات العلى ونالوا حظاً بقدر ما تعاونوا

وتعلموا ونحووا ( لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ) فانظر كيف رتب الأيمان على الحب وذلك أن العقول لا يمكنها المعارف الحقيقية والقيام بالمدينة الحقة إلا إذا تحب أفرادها وتعاونوا فإذا لم يتعاونوا لم يطمثوا في حياتهم ينقص إيمانهم طبعاً ومتى نقص الأيمان لم يدخلوا الجنة إلا بعد جهيد جهيد فالحب تبع لانظام الناس في مادياتهم وصنائعهم والايمن مرتب عليه ويتبعه راحة الآخرة وهذا ما قرره سابقا فانظر كيف تطابقت الشرائع السماوية والأحوال الطبيعية والأمور العقلية ( إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) ولذلك قال تعالى ( أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله ) وقال ( وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ) الى قوله ( فِيهِدَاهُمُ اقْتَدَاهُ ) وقال ( والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمانٍ أحقننا بهم ذريتهم ) فأنت ترى أن مدار أمر الآخرة على المرافقة والاتحاد فبهما تنال الدرجات ولا يكون ذلك إلا بالعمل في الدنيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند وفاته ( اللهم الرفيق الأعلى ) وكان كثيراً ما يقول أحق بإخواني الصالحين . وقال تعالى حكاية عن يوسف ( توفى مسلماً وأحسنى بالصالحين ) وقال سبحانه عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ( وأدخلى برحمتك في عبادك الصالحين ) وهكذا مما هو شائع مستفيض مما يدن على ما قلنا فيما تقدم أن المدار على وجود الحب والرابطة بين الناس فيها تنال الدرجات ولعلك تقول لكل نبي أمة ومالنا ونصالحى الأمم المتقدمة بل مالنا والمذنب مضوا من قبلنا في أمتنا إذ لا تعاون بيننا وبينهم قلنا اعلم ان الاجتمع هناك مع الأولين والآخرين ويحصل القرح بالأشباه والنظائر من أى قوم كانوا وعلى مقدار كثرتهم تكون اللذة بهم فالعادل في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تزيد لذته بالعادل في أمة عيسى وموسى وإبراهيم ونوح وان حجب عنه في الدار الدنيا .

ولما كانت لذة الانسان تكثر بكثرة أشباهه وأمثاله من أهل الكمال وكلما تهادى

الزمان زادت اللذة وعظمت جداً ورد طلب النبي صلى الله عليه وسلم التناكح والتناسل فقال (تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة) وكما كانت أمة النبي أعظم كانت درجته عند الله أكبر ولذته تبع لدرجته

وإذا قارنا بين أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمة ادريس التي انقضت وهم المصريون الذين اخترعوا العجائب وأظهروا الغرائب لم يمكننا أن نحكم الآن وإنما يمكن الحكم بعد انقراض الدنيا وبذلك يقارن بين أعمال الاسلام في عمارة الارض وأعمال المصريين الأقدمين ولكن ورد في القرآن في ادريس ورفعناه مكانا علياً وورد فيه أنه رفع الى السماء الرابعة وورد في السنة أن النبي صلى الله وسلم ارتقى الى السماء السابعة فلا بد أن تكون أمته أرقى من أمة المصريين السابقين لهذه الاشارة وبالجملة فأحوال الناس بعد الموت ويوم القيامة تبع لأحوالهم في الدنيا (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب)

وأما ما ورد من ذم الدنيا وأنها لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد فالمراد منه صرف وجهتها الى المنفعة العمومية لانتركها بالكفاية وإلحاقها الدين قطعاً ومعلوم أن في الطبيعة البشرية الحرص على الشهوات فتحصيل الدنيا أمر جبلي في النفوس البشرية فنزلت هذه الآيات تزهيداً للناس فيها وتذكيراً بالآخرة ليصرفوا الوجهة القلبية الى المنافع العمومية والدار الآخرة ولم يؤمروا بتركها وإلا كان تعطيلاً للمنافع وهل ترك صلى الله عليه وسلم الحروب أيام الرسالة فقد غزا غزوات وبعث سرايات تعد بالعشرات وكان محتاط في أمر الدين والدنيا جميعاً (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)

## (٧) مزج الإسلام ومصالح الدين بالدنيا

من اللطائف أن شريعتنا الإسلامية مزجت أمور الدين بالدنيا مزجاً عجيباً الأ ترى أن صفوف الصلاة هي بعينها صفوف الحروب فترى في كل أمة من الأمم نظاماً ودستوراً يقوم به كبار ضباط ويتبعهم فيه رجال العسكرية كالإمام في الصلاة فالصلون هم المحاربون وكما وجب عليهم الصلاة صفوفاً وجبت عليهم المدافعة والمخاربة صفوفاً منتظمين فتكون صفوف الصلاة كالتمهيد للاصطفاف في الجهاد ولم يكن القصد من الأمم أن تقلد الإمام في حركاته وسكناته وقت الصلاة فقط وإنما يقلد في حركاته الخارجية في الحروب وهذا كان فعل صاحب الوحي عليه الصلاة والسلام وخلفائه ومن على شاكلتهم ولولا هذا ما أمكن الثلاثة الذين تعاهدوا على قتل سيدنا على ومعاوية وعمرو أن يصلوا لهم في يوم واحد فقتل على في المسجد ونجاء عمرو لاتفاق مرضه في ذلك اليوم وأبابة خارجه عنه وصادفت الضربة ظهر معاوية بالشام في الصلاة فعطل نسله فكان الخوارج عالين بأن هؤلاء يصلون بالناس

وهكذا كانوا هم الذين يخطبون وهذه سيرة صاحب الوحي وخلفائه ومن على شاكلتهم فهم الخطباء علما منهم ان القصد من الصلاة والخطبة والجمع وغيرها سياسة الدين والدنيا جميعا وان بينهما تلازما في هذا الشرع ويا عجباً اننا ما سمعنا ان شرعا كهذا جاء باتحاد الدين والدنيا وسيرهما في خطة واحدة أعجزت كل ذي عن إيجاد حد فاصل بينهما وهذا هو الحق . وكيف يميز بين الماء والطين في جسم النبات أم كيف تستغنى الروح عن الجسد والمعنى عن الكلم فما هنا امتزاج عجيب فانظر كيف خلف من بعدهم خلف فلم يعرفوا ما المقصود من ذلك فتركتم الخطب في أيدي الجاهلين والصلوات عند الضعاف فأصبحت لا ترى إلا أشباحا خالية من روح الفضيلة وما القصد من هذه العبادات

ومما تنشق له المراثي انك ترى المسلمين أثناء تأليف كتابي هذا بينهم الشقاق

والنفوس فيها هي واداي التي هي مملكة وراء الصحراء الكبرى فيها نحو ستة ملايين من الأتوس فيهم مائتا ألف محارب وكلهم عند الحرب يقومون على قدم وساق وكذا جميع البلاد ولكن علمنا ان دولة فرنسا تريد الاغارة عليها بطريق القاء الشقاق والنفور بين كبار البائل وهكذا دولة مراكش نسمع ان فيها قلائل كثيرة ومثلها في ذلك دولة افغانستان فانها مع ما حصل لها من التقدم في زمن الملك عبد الرحمن وابنه حبيب الله خان فان أهلها لا يزالون ذوى شقاق وهكذا مصر وأهلها وجميع أقطار الاسلام على شاكاة واحدة في اخلاف والشقاق والنفور وما ذلك كله إلا لضعف التربية وترك ما أريدت به تلك العبادات والأعمال

( نتيجة ) قد ظهر لك ارتباط الدنيا بالدين والأمة بعضها ببعض كأنها العالم كله أو النفس الواحدة واننا مرتبطون ببعضنا دنيا وآخرة كالنفس الواحدة وهذا اتضح معنى قوله تعالى ( ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ) أما كون الخلق كنفس واحدة في الدنيا فقد اتضح مما ذكرناه في أهل المدينة الفاضلة وانهم كالجسد الواحد وأما كون بعثنا كنفس واحدة فقد علم من الكلام في هذا الموضوع

( ٨ ) الترقى سنة العالم شرحها القراءان قبل داروين باثني عشر قرنا

زيادة شرح وإيضاح

ولتزد الكلام على هذه الآية أيضا معقولا وبيانا صادرا عن استطلاع هذه الكائنات فنقول

الأمة تشبه النفس الواحدة من جهات كثيرة زيادة على ما تقدم . فكما أن الانسان الواحد يأخذ في صغره لنفسه ما ينفعه في كبره فكذلك الدولة تبني أوائلها ما ينتفع به أواخرها

بني كما كانت أوائلنا تبني وتعمل فوق ما فعلوا

وكما أن الشخص الواحد يترقى شيئاً فشيئاً ثم يستوى شاباً ثم شيخاً فهكذا الدولة تنمو فتشعب وتهرم وتموت وكان الدول كلها نفس واحدة تراهم يتركون الآثار ويؤلفون الكتب ويأتى الآخرون بعد اندراس من قبلهم يترجمون كتبهم ويبحثون على آثارهم فياليت شعري ما لهذه الأمم فالأولون حريصون جداً على تعاليم الآخرين والآخرون أشد حرصاً على التنقيب على آثار الأولين تلك سنة الكون ونواميس الخليفة وما هنا سؤال يهش له المغموم بالملح واللطائف وذلك أننا نرى أن الدولة تندرس آثارها وتمحى علومها من لوح الوجود فهلا أتى مدير هذا الكون العلوم على وتيرة واحدة فتأخذ الأمة ما اختارته التي قبلها وتبنى عليه فيكون الترقى دائماً بلا رجوع وما لنا نرى الناس الآن يجوبون الأقطار شرقاً وغرباً للبحث عن آثار الأولين ولا ينالون مما عرفه المصريون مثلاً إلا قليلاً من كثير ولا يفهمون الرموز المكتوبة إلا بعد جهد جهيد كالكتابة الهيرغليفية وهي كتابة قدماء المصريين ففي النظر الظاهر ان هذا يخالف الحكمة قول .

اعلم أنه عز وجل ما أرسل الأنبياء ولا علم العلماء ولا خلق الخلق إلا للترقى والكمال ولو أتى علم دولة وأخذته من بعدها سهلاً لطيفاً لو قفت حركة الكون وانحطت مرة واحدة وذلك ان الانسان لا يترقى في عمل إلا بباطل وشوق وتنبيه وإرادة واختيار ينال به السعادة فلا سعادة في الدنيا إلا بواسطة الشوق ومعنى الشوق ان يعرف الانسان شيئاً غاب عنه بعضه وحضر بعضه فيدل ما شوهده على ما غاب فيدفع النفس الى الغائب ما كان حاضراً مشاهداً فمن رأى عين الجميل أو يده أو وجهه أحب ان ينظر ما وراء ذلك وهكذا اذا رآه ثم غاب عنه فانه يبقى في الخيلة ولكن مشاهدته تكون ناقصة فيشتاق الى اتمام الرؤية بحضوره ومشاهدته . فهكذا الأمة لا يحركها الى طلب المعالي والشرف إلا أن تكون في ضعة وشاقيا ما رأت من المعالي والكمال عند غيرها فتبحث لتعرف شيئاً من معارفهم ثم تبنى على انقاضه ما يوافق مشربها وما يناسب حالتها التي هي عليها وما هذه الأعاجيب في الدول وتوارثها إلا كمثل الاستعارة في علم البيان

والكناية فانه لا يجعل الكلام بالتصريح بالمعنى دفعة واحدة والأتيان به على وجه الحقيقة فانه لا يجد في النفوس ارتياحا ولا هشاشة فاما الكناية والتورية فان اللفظ يؤتى به لمعنى ومنه يتوصل الى معنى آخر فكأنه أفهم المقصود برمز خفي وطريق يدعو الى البحث والتنقيب والتشويق

وهذا هو السر في المجازات والكنائيات والاستعارات المصروفة والمكنية والتشبيهات والاستعارات التمثيلية والمجازات المركبة والتعاريض والتلويحات وغيرها فكل لغة أمة مضت اتبعها علومها وبقيت لها آثار تدل على بعض ما تعلم وتسلك الأمم المتأخرة سبيلا غير الذي سلكته تلك فتوافقها بعض الموافقة وتباينها في أمور جديدة وربما زادت عليها في أمر ونقصت عنها في آخر وكم من علوم في قديم الزمان لم يبق منها الآن على سطح الكرة الأرضية خبر ورب علوم حدثت بعد ان لم تكن وكل هذا ليظهر قوله تعالى ( كل يوم هو في شأن ) فأما إذا بقيت العلوم بنفسها تماما كان النظام كله واحداً والفكر واحداً واتكل الآخرون على الأولين في نظامهم وأعمالهم وهذا هو الهاوية والسقوط والوقوف وجلّ مدبر هذا الكون عن الوقوف على نظام واحد إنما هي شؤون تابعة لشوق في النفوس شاقها باعث خارجي إلى مضاهاة من قبلها أو من ساكنها ( ان ربكم لرؤوف رحيم ) ولقد علمت ان بين الأمم والكلام مناسبة عجيبة وان أحوال الأمم أشبه شيء بعلم البلاغة فها هنا بلاغة عملية وفي القول بلاغة كلامية وهذا هو المشابهة بين العناصر والحروف والقصد تشويق النفوس إلى الارتقاء

فمن هذا علمت أن الأمم كلها كنفس واحدة اتصل أولها بآخرها وبحث متأخروها عن أحوال متقدميها وانها كما تشبه الانسان الواحد يأخذ من صغره لكبره ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن صحته لمرضه ومن غناه لفقره كما ورد في الحديث

ولعمري أن النظر لهذه التدبيرات يشوق نفوسنا إلى التطلع إلى محاسن الكائنات

التي أمامنا فما أجمل العلم وما أذ الحكمة فأينما تولوا فثم حكم بدیعة ان نظرنا لارتباط الأمم وفتائها أدهشنا حكمها وان عطفنا على النظر للشخص الواحد هلنا حكمه وعجائبه ثم ننظر ففرى الأمة تأخذ في الترقى من أطراف المعمورة الى من هم في المناطق المعتدلة والغربية منها كاهل أوروبا وكثير من الشرقيين فكانها أخذت في الترقى من أطراف المعمورة الى الواسط

والأمم درجات بعضها فوق بعض فمنها ذات المدنية الفاضلة وقد تقدم شرحها بأجلى بيان اعتقاداً وعملاً ولنذكر لك الآن الأمم النازلة عن الطبقة العليا مدنية واعتقاداً فنقول .

### (٩) أقسام أهل المدينة الجاهلية وأعمالهم

اعلم أن ترتيب درجات الأمم كترتيب درجات الحيوان سواء بسواء ولقد ذكرنا ترتيب الحيوان في كتابنا هذا وأنه درجات بعضها فوق بعض ولنأت بها الآن إجمالاً لتبهيح بمعرفة اتساقهما في سلسلة واحدة حتى كان العالم كله نظام واحد وتفهم ما يرى في خلق الرحمن من تفاوت ونشرح الأمم واحدة بعد الأخرى الى أن نصل إلى المدينة الفاضلة فنقول .

أنت تعلم أن أدنى الكائنات رتبة العناصر البسيطة فالنبات الذي آخر سلسلة منه وهو النخل متصل بأول سلسلة الحيوان وأدناه ماله حاسة واحدة وهو اللمس كالديدان والعلق مما يخلق في الخلق وأنواع السوائل والنباتات والثلج وبتون الحيوانات الكبيرة فكل هذه حيوانات لم يخبرت بوجود حواس أخرى لأنكرت وجودها فلو قيل للصدف في البخار أنت عندك حاسة اللمس ولكن هناك حيوانات عندها حاسة وهي الذوق كالديدان التي تسبح على الأعشاب والأشجار لأنكرت وجودها وقالت كيف يمكن أن أعلم بحاسة غير هذه وهكذا الحيوانات التي عندها حاسة الذوق إذا قيل لها ان هناك ماهو أرق منك كحيوانات في المحال المظلمة تشم ما بعد منها وبعضها

قد وجد لها عدو في محالها فأعطيت حاسة السمع ولم يخلق لها حاسة البصر لعدم لزومها لأنكرت ذلك وقالت علم ما بعد عنى محال ولو قيل لجميع ما تقدم ان هناك حيوانا له حاسة تسمى البصر يرى البعيد عنه على ملايين من الفراسخ لأنكرت لك الحيوان ووجوده إذ لا تعلم طبقة من الطبقات إلا ما علمها الله وتكر ما وراء ذلك وهكذا يترقى الحيوان من الحواس الخمس إلى أن بعضه قد يحمى أولاده كالغرابان ويزيد عليه غيره فينتفع الإنسان بعمله ويقبل منه التأديب بدرجات بعضها فوق بعض كالبهائم وأذ كها الخيل ثم يترقى عن ذلك إلى أن يقلد الإنسان بدرجات بعضها فوق بعض حتى يصل إلى درجة القرد والبيغاء والفيل فكل هذه تقلد الإنسان في أعماله أو تقبل عنه قبولا سريعا ويلى هذه الإنسان . وكما أن كل درجة من درجات الحيوان السابقة اندرجت درجاتها السابقة فيها ولم تدرك ما بعدها فالحيوان الذى له السمع قد أعطى الحواس التى قبله وهكذا ماله البصر قد أعطى السمع وما قبله وهكذا المقلد كالقرد قد أعطى كل مواهب الحيوان قبله فهكذا الإنسان أعطى مواهب الحيوان وكل درجة من درجاته فى المدينة أعطيت حظ ما قبلها وزادت عليه ، وكما أن الخمسة فيها جميع ما قبلها من الواحد والاثنين وهكذا والسبعة فيها الستة والخمسة والثمانية فيها السبعة وما اندرج فيها

فهكذا كل حيوان فى درجة أخذ موهبة ما تحته وزاد علمها والإنسان أخذ درجات ما قبله من الحيوان وكل درجة من درجات المدن فى كل شكل أرقى فانها أعطيت حظ ما قبلها وجهلت ما بعدها كدرجات الطفل والشاب الكهل والشيخ

فلو أعطى الطفل البساتين الغناء والتصدر فى المجالس لم يحفل بذلك وهكذا الشاب إذا أعطى بدل الشهوات الذهب والعلوم والمعارف لم يحفل بها فهكذا درجات الأمة كل درجة أخذت حظ ما قبلها وجهلت حظوظ ما بعدها وكأنها تنطق بلسان حالها ( لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا )

وإذا فهمت هذا فاعلم أن أول درجات المدن الجاهلة قوم رأوا أن المدار فى الحياة الدنيا على ما به بقاء الأشخاص وهؤلاء تسمى مدينتهم ( الضرورية ) لأنهم اقتصروا

على الضرورى من الحياة الدنيا فتراهم من الغداة إلى العشى يجدون لياً كلوا فاذا سئلوا لم تتعبون فيقولون لنا كل فيقال ولم تأكلون فيقولون لنعيش فيقال ولم تعيشون فيعجزون وينقطع جوابهم وهؤلاء المشار إليهم بقوله تعالى (إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَىٰ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) وترى في كل أمة أقواماً يشبهون هؤلاء في الفكر

وقوم آخرون رأوا أن المدار على ما يلد الأتس من اللذات الحسية والشهوانية ومدينتهم تسمى (الحسية أو الحسة) وإليه الإشارة (ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأُمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

وآخرون قالوا أن المدار على اليسار والغنى فأما اللذات فانها تكلفنا ما لا طاقة لنا به وتسمى (اليسار) وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَتَفَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ).

وآخرون ارتقوا عن تقدموا فقالوا ليس المدار على المال ولا اللذات والشهوات ولكن المدار على الكرامة فيعظم أحدنا عند اخوانه وعند غيرهم وتسمى (مدينة الكرامة) وإليه الإشارة بقوله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا)

وجاء آخرون فقالوا إن المدار في الحياة على جمع هذه الخصال كلها ومدينتهم تسمى (الجماعية) يقولون نال اللذات والغنى والكرامة ونعيش متمتعين إلى أن نموت وهؤلاء ومن تقدمهم لم يعرفوا عن الآله ولا الرسل شيئاً

وما أشبه هذه المدن الخمس بسلسلة الحيوانات في ترتيب الخواص فمنها ذات الحاسة وذات الحاستين وذات الثلاثة وهكذا إلى الخمس التي جمعت فوائد الجميع وعلمت علمهم

## (١٠) آراء اهل المدن الجاهلة

قد علمت أقسام أهل المدن الجاهلة وكل قسم يكون طوائف وأقساماً مختلفة متشعبة منتشرة متكاثرة وأنهن في درجاتهن أشبه بدرجات الحيوان فالضرورة كالديدان التي خلقت في المائعات وأجواف الحيوانات الكبيرة فهي فرق شتى ومدينة الخسة ذات الشهوات كالحيوانات التي أعطيت قوة الذوق واللذة وهي تتشعب شعباً كثيرة وهكذا مدينة اليسار كذوات الشم ومدينة الكرامة كذات السمع إذ به تعرف أخبار العدو فتحترس منه والمدينة الجماعية كذات الحوام الخس من النمل والحشرات فهي لم تفرق بعد إلى درجة الحيوانات العليا التي يعلمها الانسان أو تغلهه . فتأمل كيف تشابهت الدرجات وتناسقت المراتب بعضها فوق بعض بنسب محفوظة ودرجات متناسقة ملتزمة ثم أن هذه اللذائذ والكرامات والمعاش طلبوها في الحياة بحسب ما غلب على عقولهم فقال قوم

أنا نرى أن هذا الوجود لا نظام فيه ولا ترتيب فالحيوانات يقاتل بعضها بعضاً ويغالب بعضها بعضاً . يأكل الكبير الصغير والقوى الضعيف فكل طائفة تأكل غيرها وتغالبها بل ترى بعض الحيوان يقتل الآخر لمجرد المشاركة في الجوهر وإن لم يكن له حظ في قتله فهذا دليل لنا على أن طبيعة كل موجود حب الافراد بالوجود والبقاء وأن يحو ما عداه وإذن قالوا وجب أن تتبع هذه الخطة فنقاتل أعداءنا من نوع الانسان ونغاليمهم ونسبهم لحظ نفوسنا لا لصالحهم ولا لترقيتهم فهؤلاء جعلوا المدار في الحياة ونيلهم اللذائذ الشهوانية على العلبة والحروب والقهر مقلدين في ذلك طبيعة الحيوان بحسب ما ظهر لهم وقالوا إنا كلما قهرنا أمة وأخذنا قبيلة استعنا بها على قهر غيرها لنحصل لذاتنا في الحياة الدنيا إذ لا ترى سوى هذا . فهذه طريقة المغالبة . ثم أنهم يستعملون مع القلبة رابطة الجنسية فيستعينون بأبناء جنسهم وأولاد أيهم الأكبر على مغالبة من سواهم وتارة يعتبرون الوطن الذي يسكنونه واشتراكهم في

الهواء والغذاء والجو والطقس ( وتسمى الوطنية ) وتارة يرجعون في الجامعة إلى رابطة اللغة المعبرة عن ضمائرهم الموجبة للائتناس والمستلزمة قرب الأتحاد في الأخلاق والشيم والعوائد وهي وحدة اللغة وتارة بالمصاهرة كما تصنع الملوك الذين يتحابون في هذه الأزمنة فيتزوجون بنات بعضهم وهذه تسمى ( وحدة المصاهرة ) وتارة بالمعاهدة والمخالفة مع غيرهم وهي ( وحدة التناصر ) وتارة يتناصرون بكونهم كانوا تبع ملك جمعهم على عدوهم فلذلك الجامعة يستعملونها بعد ذلك فيما يحبون فالوحدات التي تستعملها المدن الجاهلة سبعة وهي الاستعباد والنسب والمصاهرة والوطن واللغة والمخالفة والتناصر واتباع جامع لهم على الوحدة

ثم هناك أمور خاصة بطوائف وأناس ليست عامة الأمم وذلك كالاشتراك في الذلة والقهر والصناعة كالنجارين والحدادين وعملة الفحم فكل هؤلاء لهم جمعيات لها عمل عظيم وهكذا الاشتراك في لذة أو جناية كالزناة والسارقين وكالاجتماع في محلات التلاقي في سفر وكالوجود في أمكنة لا أمان فيها . فأسباب الائتناف بين أهل المدن الجاهلة اثنا عشر منها سبعة عامة وخمسة خاصة . فها أنت ذا علمت أقسامهم الخمسة وآراءهم واجتماعهم

### ( ١١ ) في أئماء الثروة

فاذا حصلوا الغنى والثروة والمال أخذوا ينمون به بطرق شتى فمنهم من ينميه بطريق المغالبة لاغير ومنهم من ينميه بطريق المبايعه وأنواع المبادلات وبعضهم يجعل المغالبة على الذكور والتجارة على النساء وآخرون يجعلون ضعفاءهم من الفريقين للمبادلات وأقوياءهم للمغالبة وقوم قالوا المبادلة مع بعضنا والمغالبة لبعضنا وآخرون قالوا نغالب الضعفاء ونوبادل الأقوياء وهكذا لجميع الصور الممكنة وجدت فيهم في غير الأزمان

## (١٢) في الخشوع

وقالوا إن الخشوع شيء لا معنى له فانا نرى أن أناساً جاءوا مدعين أن عندهم قوة إلهية مع أنه لا فرق بيننا وبينهم وهؤلاء لما عجزوا عن المغالبة وأخذ اللذات بالقوة رجعوا إلى الحيلة وكما أن اصطلياد الحيوان إما أن يكون بالغلبة والقهر أو الحيلة بالآلات فهكذا هؤلاء الخاشعون يظهرون أن عندهم قوة قدسية وأمرأ عجيباً فيظن الناس فيهم الخير ويعطونهم الأموال لجهلهم وتنطية أولئك على عقولهم وهم مغرورون في ذلك مخدوعون جاهلون

ثم أن هؤلاء الخاشعين إن زهدوا في هذه اللذات التي في أيديهم فهم مغرورون جاهلون وإلى متى يتركون اللذات وهم لا حظ لهم في هذه الحياة ( ما هي إلا حياتنا الدنيا موت ونحيب وما يُهْدِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ) ثم تراهم يقولون أنهم مغرورون بمدح المادحين لهم واطرائهم عليهم وما علموا أن قوماً يمدحونهم للطمع فيما في أيديهم فيزهدون في الأموال ويعطونها لمن حولهم فكلما ازدادوا مدحاً لهم ازدادوا زهداً وإعطاءً وتباعدوا عن اللذات والشهوات وأن آخرين يمدحونهم خوفاً منهم وآخرين يفرّونهم استهزاء وسخرية وآخرين يمدحونهم مغرورين كغرورهم ظانين أن هناك لذائذ أحسن من هذه فتركوا الأدنى للأعلى

وبناء عليه فلا معنى للخشوع إلا الاحتيال والدهاء والمكر والخداع والنفاق وكل العالم يسعى للذائذ المتقدمة ويحتالون اما بالغلبة بالقوة أو الغلبة بالحيلة فغلبة القوة بجميع الطرق والوحدات السابقة والحيلة هي بالخشوع واعتقاد قوة قاهرة ودار بعدهم يكون فيها النعيم

## (١٣) اعتقادهم في العدل

وأما العدل فإنه أمر فرضي لأمعنى أنه إذا الحيوان كله والانسان لايسمى أحد إلا لحياته وحفظ نفسه وأما ما عداه فإنه يسعى لاستخدامه لمصالح نفسه وبقائه في الحياة الدنيا . ألا ترى النبات كيف تسعى عروقه لاجتذاب المواد الغذائية من الأرض وكل حيوان من الجوارح والوحوش والسباع تقتنص الحيوان الضعيف لحظه أنفسها وشهواتها فأين العدل

وهكذا الانسان كل من قدر على غيره من بني جنسه أهلكه وأذله وأخذ مافي يده وربما قتله وأعدمه لمجرد مشاركته له في الحياة حسداً واستئثاراً بالحياة والبقاء .  
وأما العدل فإتاما هو أمر اضطراري جاء لضرورة التوازن في الحياة بين العشائر والقبائل والبطون فكل قبيلتين تساوت قوتهما اضطررتا الى المجاملة في المعاملة والتبادل بالقسطاس المستقيم وتعهدتا على المعاملة بالحسنى فاذا ضعفت إحداها نقضت العهود والمواثيق ووجب قهرهم وإذلالهم وأخذ مافي يدهم جبراً وهذا بعينه ما تفعله دول أوروبا الآن مع الشرقيين كدولتي تركيا والصين بخلاف معاملة بعضهم لبعض فهي خلاف ذلك فاذا دامت أمتان على تلك الحال مدة<sup>(١)</sup> جاء من بعدهم فظنوا هذا أمراً طبيعياً فتعاملوا كما كان الذين من قبلهم وهذا لا جرم جهل بالسبب الأصلي في ذلك وطبيعة العمران فربما قويت أمة فالواجب عليها أن تأخذهم بالغلبة إذ الانسان لا يلزمه ان يعامل أهله ولا أهل بلده بالحسنى إلا لاضطراره لهم ولولا الاضطرار لوجب الأتفراد بالبقاء فما بالك بمن هم أبعد عنه جنساً ووطناً ولغة وجامعة وتناصرأ وتعاهداً فهم الأولى بالغلبة والأخذ بالقهر والقوة والحداع والختل ثم القتل والأهلاك أو الأباداة من الوجود فماخص آرائهم في العدل انه قهر أو لا غرور آخرأ

(١) كان ذلك منذ ٢٥ سنة حين طبع هذا الكتاب أول مرة أما الآن سنة ١٩٣١ عند الطبعة الثانية فإن الصين والترك قد أصبحتا دولتين قويتين جدا

## (١٤) المدين ذات الروح أو الجسد والروح

## ثم الضالة والفاصلة

هذه هي أخص آراء فلاسفة المدن الجاهلة الذين هم أشبه بالهوام في الأرض والحشرات الصغيرة التي لم ترتق الى فهم الانسان ومعرفة طباعه ولم تعلم كيف تتعلم منه ولم تدر ما مقداره فلم تصل لدرجة الحيوانات التي تبيض فانها تفهم وتعلم الانسان وأوامره لها فضلا عن الحيوانات التي تقلده كالقرود

وبالجملة فالحيوان ثلاثة أقسام قسم له الحواس الخمس أو بعضها ولم يفقه عن الانسان شيئاً قط وهذه هي الهوام والحشرات ونظيرها في الانسان المدين التي ذكرنا أقسامها وآراءها وأعمالها

القسم الثاني الحيوانات التي تفهم عن الانسان وتقبل بعض تعليمه وتخضع لآشاراته وهي ذوات البيض وكثير من الحيوانات التي تلد كالجواميس والحير وغيرها  
القسم الثالث حيوانات تقلد الانسان في أعماله ونظيرها في الانسان المدينة الفاضلة فانها قلدت الخالق في ملكه وفي صنعه في جسم الانسان وهي المترشحة للترقى الى عالم أرق من عالمنا هذا .

واذ تم الكلام على القسمين الأول والأخير فلنذكر القسم الثاني فنقول : قد ترقى عن الطبقة السابقة وهم أصحاب اللذائذ المذكورة قوم فنظروا في الكون وقالوا . ان العدل بين الناس والمسألة هما الأمر الطبيعي فاما المغالبة والمضاربة فهما خارجان عن سنن الطبيعة ألا ترى أن الأمة اذا اعتدت على الأخرى التزمت الأخرى بالمدافعة قهراً ولو تركوا وشأنهم لما حاربوا ولا قاوموا فالقتال والضرب في نوع الانسان أمر غير طبيعي والمسألة هي الطبيعية قالوا ان الواجب بين نوع الانسان هي المسألة أما الحيوانات الأخرى فتؤخذ قسراً عنها لا تتفاهع الانسان وهكذا كل نوع من أنواع الحيوان لا يأكل ابناء جنسه ويقاوم ما عداه والحيوان يأكل النبات الذي هو نوع

آخر وهذه هي طبيعة الكون هذا سيرهم في الحياة الدنيا فسألتمهم طبيعية ومقاتلتهم إنما هي لأمر خارجي ، أما اعتقادهم واليوم الآخر فهم في فرق شتى وأمم مختلفة وآراء متفاوطة

وترجع أحوالهم إلى ستة وتحت كل واحد شعوب وقبائل ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين. الفرقة الأولى قالوا ان الأنسان خلق في الدنيا وهي دار باطلة ووهي زائل وما الحياة الحقيقية إلا الحياة التي بعد هذه فإنه يستحيل عقلا أن تكون نهاية هذا العالم ما نراه من هذه الدار التي كثرت شرورها وامتلات بالفساد كل لذاتها آلام ومصائب وجل مدير هذا الكون أن تكون هذه الدار هي الحقيقية بل هي دار يجب الخروج منها بالموت وهؤلاء هم المنتحرون بأنفسهم ومنهم كثير باورو باء ، والفرقة الثانية قالوا ان هذه الحياة حقيقية ودار حق ولكنها تشوشت بما علق النفوس عن الكمال وما بنوا آدم فيها إلا كسفن تمخر البحار فأتتها الرياح من كل فج عميق وأحاطت بها الأمواج من كل جانب وأمت لها كواسر البحر من الأسماك الكبار والتماسيح فأصبحت تهددها عاديبت الأسماك وأمواج البحر وقواصف الرياح فلم يتم ما قصد بها ولم ينل منها الوطر فهكذا الأنسان إنتابته حوادث الدهر وقواطع الشهوات وأهوال الحياة ومفزعات الخطر المحقق والغموم والهجوم حتى جاء أمر الله وغرّم بالله الغرور فهذه الحياة لا ثمرة فيها ويجب التخلص منها

الفرقة الثالثة قالوا ان الأنسان هو الروح وبها حياته وما الجسم إلا عارض عاقها عن الأعمال لما شاهدوا أن المتجردين بالرياضيات يصلون إلى نعيم لا يحس به سواهم كما هو منذ كور عن مدينتين ببلاد الهند غزاها الاسكندر كما ذكر الشهرستاني في كتاب الملل والنحل وهو أمر مستفيض شائع فوجب التخلص من هذا الجسم فترجع الروح إلى عالمها وتخلص من آلامها

الفرقة الرابعة قالوا ان الأنسان في هذه الدنيا حق وهو مركب من الجسم والروح

معا ولا يصح اهلاكه إذ لا تكمل إلا بالجسم وإنما العائق له عن الكمال الشهوات  
 المحرقات وآلامها الموبقة وغوائلها العائقة عن العلوم والمعارف والحكمة فوجب إذاً  
 قطع الشهوة والغضب أما الموت الحقيقي فمخالف لحكمة وجود الجسم اذ به كمال  
 النفس وترقيتها إلى العالم الأعلى وليس يعوقها عن الكمال الا شهوات الفرج والبطن  
 فاذن يجب قطع دابرهما بالعبور عنهما والاستعاضة عنهما بالذات الروحانية كما هو  
 شائع مستفيض عن قدماء اليونان وعلما الهند من البوذيين والبراهمة وخلفاء فيثاغورث  
 وعلى هذه السنة كثير من المتصوفين الذين ساروا على طريقة هؤلاء ويظنون أنها  
 طرق الاسلام

الفرقة الخامسة يرون أن الحياة حق وان الإنسان مركب من أمرين متضادين  
 وهما الروح والجسم كما قال الذين من قبلهم ولا بد من ازالة هذا التضاد باذهاب  
 الرعونات من الجسم والنفس مع بقاء الشهوتين في البدن وهؤلاء ومن قبلهم يقولون  
 ان في العالم الهين الله الخير واله الشر فلا أول الروح والثاني الجسم فوجب مغالبة الثاني  
 لثلاثي الأول وذلك يكون بأضعاف شهواته أما بالأمانة كما في القول الأول أو  
 باذهاب النواتج عنها كما في القول الثاني وأصحاب القولين اتفقوا على هذه الجملة «مت  
 بالأرادة تحيي بالطبيعة» يعنون امت الشهوة والغضب يحبي عقلك ومعارفك وأسندوا  
 هذا التضاد لفاعلين كما ذكرناه آنفا وبعضهم أرجعه إلى تضاد المصنوع نفسه وطبيعته  
 لا الفاعلين وهذا هو الشائع على السنة المتصوفة اليوم مع قطع النظر عما ترتب عليه  
 وهو وجود فاعلين

الفرقة السادسة أنه لاحقيقة في الكون البتة وكل ما شاهدناه يجوز غيره فإنسان  
 اليوم قد يمكن أن يظهر بشكل آخر فلا يمكن تحديد الأنواع والأجناس وهناك  
 ينتفي كل ما يسمونه محالا فلا يمكن انكار شيء إذ يجوز أن هذا المنكر سيكون في  
 وقت ما فهذه ستة أقوال أصول كلهما مقدمات لنظام الأمة الذي قدمناه في آراء أهل  
 المدينة الفاضلة وأنه يجب أن يكونوا كنفس واحدة ذات أعضاء متفاوتة وبهذا يدخلون  
 دار السلام كما قدمنا

ويلحق بالمدن المنحرفة بأقسامها الستة امتان المدينة الفاسقة والمدينة الضالة فاما الفاسقة فهم الذين قال الله فيهم ( ولا تكونوا كالَّذِينَ أُوتُوا السُّكُوتَ مِنْ قَبْلُ فَظَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ) وهؤلاء هم الذين طال عليهم أمد النبوة ولم يظهر فيهم عقلاء وحكماء ففسق القوم فيها فحق عليها العقاب فدمرناها تدميرا فأول علماؤهم وحرف وعاظهم واحلوا وحرموا بالتفريع والجدال وكما عرفوا شيئا ظنوا أنه أصل يبنون عليه وتركوا أصل الدين فعتوا عن أمر ربهم

وأما الضالة فهي التي أرسل لها رجل أوهم أنه يوحى اليه كالمهدي السوداني فقد غير وبدل وأحل وحرم بادعاء أن الخضر يعلمه فهذه هي الضالة وهي وما قبلها ملحقتان بالمنحرفة فتاخص من هذا كله ان الامم ثلاث طبقات كطبقات الحيوانات بعضها فوق بعض

طبقة جاهلة وهي خمسة أقسام ولهم آراء وأفهام تناسب معلوماتهم وهم في مقابلة الحيوانات ذوات الحاسة الواحدة والحاستين وهكذا الى الخمس الحواس من طبقة الهوام وبعض الحشرات اللاتي ليس لهن معرفة الا بالعائش فاما تدبير البيض واطعام الأفراخ والحمل وإرضاع الاولاد فليس لهن فيها من سبيل وهؤلاء هم المغضوب عليهم وطبقة منحرفة وهي وملحقاتها ٨ أقسام نظير الحيوانات التي تبيض وتحضن أفراخها وتلد وترضع وتفهم عن الانسان بعض ما يلتقي اليها من الأوامر بالأصوات الساذجة وهؤلاء هم الضالون لانهم عرفوا شيئا من أمر الخالق والاخرة والانسان ولكنهم تحيروا واضطربوا اضطرابا شديداً

الطبقة الثالثة هم المنعم عليهم وهم أهل المدينة الفاضلة وهم كالطبقة العليا من الحيوانات التي تقلد الانسان في أعماله فمنها ما حسن صوته ومنها ما حسن لونه كالطاووس ومنها ما ينطق بمقداله كالبيغاء ومنها ما يفهم عنه بذكائه كالقيل ومنها ما له أدب حسن وذوق لطيف كالخيل اذ كثيرا ما تنجى صاحبها من عدوه بالعدو والفرار وتقيه

من الأخطار ولا تهز ذنبها إذا أصابها رشاش بولها لئلا يصيبه فينجسه وربما تحزن عليه إذا مات فتموت كما وقع كثيرا أو تمرض لمرضه كل هذا مجرب مشاهد ومنها ما يقلده في حركاته وسكناته وهو القرد فكل هذه الحيوانات طبقة عليا وقد اعطيت حظ جميع ما تحتمها وارتقت عليها بتقليد ما هو أعلى وهو الانسان فهكذا أهل المدينة الفاضلة نالوا الحظوظ التي نالتها الامم التي انحطت عنهم ولكنهم لاحظوا التوسط والاعتدال وارتقوا بها الى تقليد نظام مدير الكون في أعمالهم وأقوالهم فقلدوه في نظام مدينتهم وجعلوها على هيئة الجسم الانساني أوهيئة العالم الالهى كما قلدت تلك الحيوانات الراقية الانسان في حركاته وسكناته وصوته وجماله وان كانت نسبة تلك الحيوانات الى الانسان أقرب من نسبة الانسان المرتقى الى مدير الكون

إذا فومت هذه المراتب الثلاث فهمت اهدنا الصراط المستقيم صراط الدين انعمت

عليهم غير المفضوب عليهم ولا الضالين